﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ **[مريم: ١٣]**

> **ما كنت أثق بذوق أمي قبل زمان طويل، حتى قالت لي مرة: «تعال نشاهد فيلما»، فجاء مشهد لامرأة تمشي على البحر، فقالت أمي: «إن هذا أفضل فلم قد تشاهده في حياتك»، وبالفعل، لقد كان أروع فلم، ومنذ تلك اللحظة أعلنت أنن سأثق بذوق أمي إلى الأبد. لقد بدأت الحكاية أصلا عندما سافرنا، فكان طلبي الوحيد في هذا السفر أن اذهب إلى ديزني لاند فغنسا (= فرنسا)، فإذا ما ذهبت إلى ديزني لاند فغنسا أصبحت لا أهتم بشيء بعد ذلك، لكن أمي لم تأخذني إلى فغنسا (=فرنسا)، بل أخذتني إلى النمسا! قالت أمي: «يجب أن نذهب إلى النمسا»، وبالفعل، لم أهتم بالنمسا! ما هي النمسا؟ لكنها أخذتني إلى فيينا، إلى بيت موزارت، والحديقة التي صوروا فيها:ذا سوند أوف ميوزك. إن لأمي ذوقا صعبا في كل شيء، فإذا ما أحبت شيئا، كان هذا لشيء من أصعب الأشياء ذوقا بالعالم، ما أكثر ما قصت لي عن ديانا الراحلة لما كنت في الخامسة ابتدائي، وكنا نشاهد برنامج أوبرا سوية..إلخ**
>
> **Twitter: *Larevey*, Strumbannfuhrer**

من أهم الصفات الحيوية للحيوان، والإنسان تحديدا، هي أنه لا يتأثر بالبيئة المادية الخارجية، وأنا إذ أصر على كلمة مادية، إنما أفعل ذلك، كي لا أنفي عنه أنه يتأثر بالبيئة المجردة، إذ أن تأثره بالبيئة شيء معروف ومشهود، ولكني أقول: المادية، أي البيئة التي تجعل الإنسان لا تنتهي صلاحيته كما تنتهي صلاحية الخبز، إن في الانسان قدرة على التكيف على كل الظروف، ولكنه منذ صار مدني، أو عالميا أو عولميا، تحول من انسان عصي على التأثر الى منتج عالمي[1]، ومن مثال مظاهر ذلك: أنه صار يتبع فئة أكبر منه، فئةً هو يظن أنها الفئة الأصلح، فئةً تطورت وترقت تطورا وترقٍ أكثر من تطوره هو الإنسان القروي، (والقروي هنا ليس معناه ساكن القرية بل هو مضاد للمدنية التي نعنيها في سياقنا هنا؛ أي الإنسان صاحب التفكير غير المتمدن)، نقول: منذ صار الإنسان مدنيا، تحول إلى خبز؛ فالإنسان في اللحظة التي يعلن فيها رغبته في أن يكون أكثر

[1] فتحي المسكيني، المنتحرون أو تشغيل الموتى، ٢٠١٦/٢/١٦، الدين وقضايا المجتمع الراهنة.

من نفسه، يريد أن يكون جزءا من العالم، يريد ان يخرج من بوتقته الاسلامية او الفقهية أو قل: البوتقة الأخلاقية التي نشأ عليها إن شئتَ، يريد الخروج من ذلك كله الى البوتقة الشاملة التي ينتمي تحتها الانسان العالمي، بل الانسان بشكل عام، يريد أن ينتصر لقيم الانسان الحقيقية وحقوقه التي لم يكتبها الانسان، بل كتبها فردٌ ما، يريد أن يدعو لقيم ليست قيمه وهي أجنبية عنه، لكنه يدعو لها لأنها تحقق له هو، تحقق له معنىً خاصا، معنى يجد فيه حلاوة كونه انسان ينتمي إلى الفرقة الكبرى، كما يجد المتحدث العربي لذة خاصة وهو يعبر عن جوعه بالإنجليزية، إنها لذة الانتماء الى العالم المتحدث بالإنجليزية، وهو انتماء مطاطي لا حقيقة له، نقول: إن هذه الفرقة الكبرى ليست الغرب مثلا أو امريكا، بل انها قد لا تكون مجموعة فعلية من الاشخاص انها اقرب ما تكون الى (الاله الاجتماعي) الذي يُعبد لكن أحدا من عباده لا يعرف أين هو بل ما هو، إلهٍ اجتماعيٍّ يستطيع أن يتحول احيانا الى (شيطان اجتماعي) فيضلُّ عبادَ الاله الاجتماعي الاخر الذي كانَه قبل دقائق، نقول: منذ أن قرر أن يعلن رغبته هذه، هو يقرر، ضمنيا، في خطابه، وظهورا أيضا، هو يقرر أنه قد صار خبزا، أي صار شيئا، نعم ان المدنية تشيئ الانسان[2]، تجعله مادة قابلة للتأثر بعوامل البيئة الخارجية المادية، نعم، لقد اندثر الحق كقيمة، وحلت محله الكثرة الغالبة، فهم يدَّعون، أن العقل الكلي (أي العقل والأفكار الجمعية للعالم: أي القيم التي اصطلح وتوافق عليها العالم فطرةً دون تأثيرات من الخارج) أقرب الى الحق، من العقل الكلي الايدلوجي، (أي العقل أو الافكار أو القيم التي تؤسس لها فرقةٌ ما مثل الإسلام أو المسيحية إلخ)، ولما كان ذلك كله: أي تحول الانسان من كائن حيوي إلى كائن مادي عالمي، أي تحوله إلى خبز: وجب أن يعرض على الانسان نفسُ التأثيراتِ التي تعرض على الخبز، وهي العفن وانتهاء الصلاحية، واذن، فالعفن = المشكل النفسي الذي يلم بالانسان، والذي هو جزء منه الاكتئاب، ومن خلال هذا الاكتئاب، ينفذ الرائي إلى العالم نفذةً تجعله يرى العالم من عين مكتئبة، أي أن المدنية تجعل الإنسان يمكئب الوجود، أي ينظر إليه نظرة يغلب عليها الطابع السوداوي، تجعله ينتج سؤالا هو «سؤال الغرض من معاناته هذي كلها ومن صعوبة حياته»[3]، ومن هنا فإن نصا نشرته [4] في مدونتها،

---

[2] فتحي المسكيني، المنتحرون أو تشغيل الموتى، ٢٠١٦/٢/١٦، الدين وقضايا المجتمع الراهنة.

[3] https://nanba915.wordpress.com, /2019/01/24

ولأهمية الموضوع بالنسبة لي قررت التعليق عليه، ويكتسب هذا النص أهمية لأنه صادر عن شخص مثلي، شخص فهذا الكلام المنشور هو حوار بين شخصين غير مثقفين، يتسآلان سؤال يدور بين المثقفين، لكن أحدا من هؤلاء المثقفين لم يجب عليه بسياق الأشخاص العاديين.

الانسان موجودا (الوجود أول مرة)

إن المعضلة الكبرى التي تُعجز الإنسان المؤمن، أو الساعي للإيمان: ليش؟ بمعنى، لماذا كان الإنسان مضطرا لمعايشة المعاناتين الكبريين: معاناة الوجود، ومعاناة خوض الحياة؟

قلتُ: هذي النقطة صحيحة، هناك مسألتان: أولا الوجود نفسه، من حيث هو وجود مجرد بعيدا عن الابتلاء والألم، ثم هناك مسألة الابتلاء مضافة الى الوجود، وأول ما يجئ على بالنا عندما نذكر هذه المسألة، هي الآية: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا)، «يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم»[5]، ..أي أنهم عندما يخرجون من بطون أمهاتهم يكونون بالفعل قد شهدوا بالتوحيد وهو الميثاق، «وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (الروم ٣٠)، وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة[6]»، وهذه الآية سلك فيها المفسرون مذاهب شتى، فالقول الأول: «إن الأشهاد هنا معناه فطرهم على التوحيد»[7]، والثاني: «أنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها»[8]، هنا يقصد أنه خاطب الروح (ولنقل الروح أو الجسم فلا فرق هنا) خاطبها قبل ان يكون الانسان إنسانا، اَي انه خاطب الانسان قبل ان يتكون بايولوجيا، وأعطاه المعرفة

---

[4] ibid

٥ ابن كثير، التفسير، ٣/٥٠٠، دار طيبة ١٩٩٩

٦ نفسه.

٧ نفسه ٥٠٦

٨ القرطبي، التفسير، ٩/٣٧٥، الرسالة، ٢٠٠٦

بالتوحيد ثم انزله الى الارض (عالم الحس) ليكون بعد ذلك إنسانا يتكون تكونا بايلوجيا، «ولكن الخروج من عالم النعيم والنزول إلى الأرض هو ترد لمصلحة الإنسان؛ لأنه فقدان للوجود، وفقدان للنعيم الغيبي الأمتع[9]» ومن هذه الشهادة او الإشهاد تكون الحجة علينا؛ لأننا شهدنا قبل أن نولد أن الله واحد، ولما كنّا نشهد ذلك، فنحن نشهد، أيضا، بالتبعية، وبالضرورة، بكل ما قاله الله من أوامر ونواهي؛ لأن هذا من ترتيبات شهادتنا بوحدته، أننا نشهد أن كل ما يقوله حق، وأنه إذا أمر أوجب، ومن هذه الأوامر والنواهي هو الإيمان بالقضاء والقدر.

أما القول الثاني، قال ابن العربي: فإن قيل فكيف يجوز أن يعذب اللهُ الخلقَ وهم لم يذنبوا، أو يعاقبهم على ما أراده هو منهم وكتبه عليهم وساقهم إليه؟ قلنا: ومن أين يمتنع ذلك، أعقلا أم شرعا؟ فإن قيل: لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعل ذلك! قلنا: لأن فوقه آمرا يأمره وناهيا ينهاه، وربنا تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولا يجوز أن يقاس الخلق بالخالق، ولا تحمل أفعال العباد على أفعال الإله، وبالحقيقة الأفعال كلها لله جل جلاله، والخلق بأجمعهم له، صرفهم كيف شاء، وحكم بينهم بما أراد، وهذا الذي يجده الآدمي إنما تبعث عليه رقة الجبلة وشفقة الجنسية وحب الثناء والمدح؛ لما يتوقع في ذلك من الانتفاع، والباري تعالى متقدس عن ذلك»[10]

وهنا ابن العربي يرد على من سأله: كيف يعذب الله هؤلاء الناس وهم لم يذنبوا؟ فيرد ابن العربي، قائلا: وما في ذلك؟ فالشخص الاخر الذي يجادل ابن العربي يقيس حالته بالله فهو يقول: نحن نعرف عرفا ان الشخص الرحيم لا يعذب الناس، فيرد ابن العربي: أن هذا قياس باطل؛ لأن هذا الرحيم الذي قلتموه إنما كان رحيما لأنه يتبع كلام الله الذي أمره بالرحمة، ولذلك، فالله لا يقاس بالمخلوقات، فهنا ابن العربي يقفل الباب إقفالا نهائيا أمام أي فرصة للوصول إلى حل هذا السؤال: لماذا نحن موجودون، ولماذا نتكلف عناء الوجود إذا كنّا لا نستطيع أن نتعامل مع الذي أوجدنا تعاملا عقليا، بحسب رأيهم؛ لأن الله لا نتعامل معه وفق المعطيات العقلية الانسانية! (وهذا الرد لا يثلج صدر الإنسان المادي الحديث)

٩ الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، دراسات الوحدة، ٢٠٠٩، ٢٠٨
١٠ القرطبي، التفسير، ٣٧٩/٩، الرسالة، ٢٠٠٦

.

ويجد المؤمن صعوبة في تبرير الأهوال والمصائب الحاصلة للناس، ويتساءل: كيف يمكن أن توجد مصلحة مقنعة تقدم سببا لكل هذا؟ والأهم من هذا، هل مصلحة الوجود تكافئ صعوبته؟؟!!

قلتُ: المصلحة المقنعة تقصد فيها الكاتبة: ما هي الحوادث أو الأشياء التي قد تترتب على هذه الأهوال التي حصلت لفرد ما أو مجموعة من الناس، بحيث تصير هذه الأهوالُ مقبولةً حال حدوثها وترتُّبها لهذا الشخص نفسه أو هؤلاء المجموعة من الناس؛ لأن لها نتائج تبرر وسائلها، والكلام في هذا السؤال (أو الافتراض!؟) غير مفيد أصلا أولا، وهو، ثانيا، غير موجود، لا فعلا، ولا فرضا: أي لا مجال لطرح مثل هذا السؤال، فإذا كان ثمة مجال فعلا للحديث عن وجودٍ عمليٍّ (لمصلحة مقنعة)، فإن هذه المصلحة غير قابلة للعلم، لأن من شأن هذه المصلحة –لو وجِدت– أن تكون ما ورائيةَ أن صح التعبير أو ميتافيزيقية، فكيف، إذن، والحالة هذه، أن نتعرفَ كنه هذه المصلحة؟ ولا تستطيع القول إن معرفة هذه المصلحة ليس شيئا أصيلا، فطالما كان هناك مصلحة فلا يهم معرفتها! وهذا خطأ؛ لأني يجب أن أعرف ما هذا الشيء الذي بنى نفسه فوق سعادتي!

أما إذا افترضنا وجودها جدلا أي تنظيرا لا وجودا عمليا، فأيضا لو سلمنا بوجود هذه المصلحة، فإن وجودها لا يخدمني أنا الشخص الذي يعاني. ماذا يهمني لو كان لألمي مصلحة كبرى لا تتصل إلا اتصالا جزئيا بي؟ لماذا وجب علي أن أقوم بهذه المهمة من أجل إنقاذ العالم، أو من أجل أن يسير الكون سيرته الأولى المعروفة؟

١/ والظن أن الإنسان خلق وصُمم بحيث تكون هذه المصلحة الكبرى خارج وفوق إدراكه، واستيعابه لها مستحيل.

٢/ وقد يبدو من منظوره أن وجود حكمة تستطيع تبرير كل هذا أصلا محض خيال

٣/ خصوصا أن الكتب السماوية وما شابهها من أشياء يعتقد أنها معطيات إلهية لا تقدم إجاباتٍ شافية

١/ لنفترض، حتى نستطيع أن نجد فرصة في أن نجادل، فقط للمجادلة، لنفترض أن هذه الجملة صحيحة، عندئذ يكون سؤال: ما قيمة هذا، وما الحكمة منه؟ ما قيمة ان الانسان مخلوق بحيث لا يستطيع السيطرة على ظرفه؟ أفي الأمر نوع من تحدٍ أو ما شابه؟

٢/ ذا صح ذلك أنه لا يوجد حكمةٌ تستطيع ايجاد حل يساعد الانسان في مواجهة العالم، فلا قيمة لكلامنا هنا اذن!

٣/ لتقصد أن الكتب السماوية لم تحسم أمر الابتلاء، بل رمزته وعمّمته وأجملته، وليس من شأن القران أن يجيب على كل سؤال، بل من شأنه أن يقدم المنهج الذي نستطيع من خلاله أن نجيب على كل سؤال. قال في الأنعام "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم"

والبلو معناه الاختبار، والمراد به ظهور موازين العقول في الانتفاع والنفع بمواهب الله وما يسره لها من الملائمات والمساعدات، فالله يعلم مراتب الناس، ولكن ذلك بلوى لأنها لا تظهر للعيان إلا بعد العمل، أي ليعلمه الله علم الواقعات بعد أن كان يعلمه علم المقدرات، فهذا موقع لام التعليل في (ليبلوكم)

تقريبا هذا اقصى ما يقدمه القران عن الابتلاء (التحرير والتنوير، عاشور).

وهذا سبب آخر يقودنا لتقرير أن المصلحة فوق إدراك الإنسان؛ لأنها ما أُعطيت له ولا حتى لُمح لها. الخلاصة، هذا الغموض شيء يتحتم على الإنسان التعايش معه. ويحتاج لثقة عمياء مطلقة بالخالق كي يتجاوز الأزمة النفسية الشديدة اللي يولدها سؤال الغرض من معاناته هذي كلها ومن صعوبة حياته.

من قال ذلك؟ إن المصلحة (من الوجود) فوق إدراك الإنسان؟ فلكي تقرر هذه القاعدة، يجب أن تعطيني الطريق التي توصلت بها إليها.

يوم الأمس سمعت ضيف بودكاست ثمانية الأخير، همام يحيى، يدلي بملاحظة ذكية، فيقول أن الأسئلة أمثال هذا السؤال، لا يفترض أصلا توقع إيجاد جواب سريع ومريح ومطمئن وجاهز لها؛ لأنها أسئلة وجودك! هي الأسئلة اللي وُجدت كي تجيبها. فالمفترض أن رحلة حياتك أصلا رحلةُ بحثٍ وتفكر فيها، ولا يتوقع أبدا أن تقع على إجابتها في كتاب أو في سنتين من التفكير.

سمعت كلام همام، وهو منظر، لا يقدم إجابات، فصحيح أنها أسئلة وجودي، لكن الإنسان العام، الإنسان القديم الجديد الذي ولد قبل مليون سنة ولا زال يعيش، وإن لم يكن هو أنا شخصيا، فإنه ظل يبحث منذ ملايين السنين، عن سر وجوده، فلم يجد، فما معنى والحالة هذه كلام همام؟ هذا معنى كونه تنظيرا، إذ لا أجد فيه ما يثلج صدري، ولا أجد فيه جديدا. إنه يموه، بل يزيد من فداحة أثر السؤال: لماذا نحن موجودن؟

وكلامه صحيح في نظري، لأن الملحوظ أن الإنسان المرتقي لدرجة عالية من الإيمان لا يصلها إلا بعد سنين من الحيرة و (العزلة) والبحث المضني (والبحث لا يعني بالضرورة بحثا كالاطلاع، فقد يكون بحثا فكريا) وكثير من التفكير والتساؤل.

المؤمن يصل إلى درجة إيمانه منذ الثانية الأولى، لأنه لا يشك أصلا، إلا ما شذ، ولما كان لا يشك، فهو لا يعاني، ولما كان لا يعاني، فلا لا يمكئب الوجود، بل إنه يمكيجه. إن المؤمنَ الطبيعي مؤمنٌ لكنه لم يعانِ.

أولا، الحكمة الكبرى مجهولة، ولاعقلانية (أي أنها لاتخضع لقوانين عقلك ومقدرته على القياس). وعلى الإنسان أن يسعى جاهدا لهضم هذه الحقيقة، والارتباط بصانعها، كي تكون الحياة على الأقل محتملة

كيف تكون الحياة محتملة إن لم نكن مؤمنين؛ إذ أن الإيمان هو المفتاح الأول للصبر؟ وإذا كانت الحكمة مجهولة، فهذا يتطلب إيمانا قويا لنقبل بسرية الحكمة، وكيف نرتبط بالصانع ونحن لم نحقق شرط الإيمان الكافي؟.

ثانيا، يُمتحن الإنسان بالغوص وسط الحيرة هذه كلها، ولا يمنح الطمأنينة إلا بعد عناء، أي، لاتمنح الطمأنينة إلا لمن استحقها ودفع ثمنها، فإذا لم تدفع الثمن من خلال رحلة شاقة بحثا عن الحقيقة وعن قبولها، لن تنعم ببالٍ هادئ.

؟؟